الفصل الأول

صيف 2026

كان الساحل الشمالي في ذلك الصيف يبدو هادئًا أكثر مما ينبغي.

البحر أزرق صافٍ، والرمال ناعمة، ونسيم المساء يمرّ خفيفًا بين أشجار النخيل المحيطة بالفندق الصغير الذي اختاراه لشهر العسل. لكن الهدوء كان كاذبًا. حتى هنا، على هذه البقعة النائية، كانت شاشات التلفزيون في بهو الاستقبال لا تتوقف عن بث صور الدخان والدم.

جلس كريم على الشرفة المطلة على البحر، وزوجته ندى إلى جانبه. كانت تمسك فنجان القهوة بيديها الاثنتين كأنها تستمد منه دفئًا إضافيًا. على الشاشة الصغيرة داخل الغرفة كانت تظهر مشاهد متلاحقة: اشتباكات في شوارع طرابلس، جثث في أحد أسواق صنعاء، مظاهرات مشتعلة في بيروت، وصور لأطفال فارين من مدينة أخرى في السودان. المذيع يتحدث بصوت رتيب عن «موجة جديدة من العنف الطائفي» برعاية أطراف متعددة: أردوغان من جهة، والملالي من جهة، وآل سعود وآل ثاني من جهة ثالثة، بينما تتحدث تقارير أخرى عن تواطؤ أو صمت أطلسي وأمريكي مريب.

كريم أطفأ الشاشة بالريموت.

— يكفي... حتى هنا وصل إلينا.

ندى لم ترد فورًا. نظرت إلى الأفق حيث كانت الشمس تتهيأ للغروب، ثم قالت بصوت خافت:

— العالم كله يحترق يا كريم. سوريا، ليبيا، اليمن، أفغانستان، الصومال... والآن لبنان والسودان. كلهم يذبحون بعضهم باسم الدين. سنة وشيعة، وكل طرف يجد من يموّله ويزوده بالسلاح.

صمت لحظة، ثم أضافت:

— وليس الإسلاميون وحدهم. التطرف المسيحي يعود بقوة في أماكن كثيرة... أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك يتحدثون عن «حروب مقدسة» جديدة.

واليهود المتطرفون في إسرائيل لا يتوقفون عن الحديث عن الأرض الموعودة والدماء التي يجب أن تُسفك من أجلها.

كريم مد يده وأمسك يدها.

— لذلك جئنا إلى هنا. لننسى ولو لأسبوعين. لنتذكر أن هناك شيئًا آخر غير الكراهية.

ابتسمت ندى ابتسامة صغيرة متعبة.

— هل ما زال الحب كافيًا في زمن كهذا؟

نظر إليها طويلاً. كانت عيناها تحملان القلق نفسه الذي يراه في عيون معظم الناس هذه الأيام، لكنه كان يرى خلف القلق شيئًا آخر: إصرارًا هادئًا على أن يبقى شيء إنساني حيًا.

قال وهو يضغط على أصابعها:

— إذا لم يكن الحب كافيًا... فماذا يبقى لنا؟

في البهو أسفل الشرفة، كان مدير الفندق يتحدث بصوت مرتفع مع مجموعة من النزلاء عن آخر الأخبار. كلماته كانت تصل مبتورة:

— الأطباق الطائرة ظهرت فوق نيويورك وموسكو وطهران والرياض في الوقت نفسه... لا أحد يعرف ماذا يريدون... الصواريخ لم تصل إليهم... أشعة زرقاء...

كريم وندى تبادلا نظرة سريعة. لم يكن هذا هو الحديث الذي أرادا سماعه في ليلة زواجهما الأولى على الشاطئ.

قامت ندى ومدت يدها إليه.

— تعال... لنسر على البحر قبل أن يحل الظلام تمامًا. أريد أن أسمع صوت الموج فقط، ولو لساعة.

نزل كريم معها من الشرفة. خلفهما كانت الشاشات ما زالت تضيء بصور الخراب، وأمامهما كان البحر يمتد هادئًا كأنه لا يعرف شيئًا عن الحروب المقدسة التي تمزق اليابسة.

لكن في السماء، فوق الأفق البعيد، كان شيء ما قد بدأ يتحرك.

الفصل الثاني

السماء المعلقة

في صباح اليوم التالي، كان كل شيء قد تغيّر.

كريم استيقظ على صوت ندى وهي تهزّ كتفه بعنف. عيناها واسعتان، والصوت في الغرفة المجاورة مرتفع ومتقطع. عندما فتح الشرفة ونظر إلى السماء، فهم السبب.

كانت هناك... أطباق.

عملاقة، رمادية ملساء، معلقة بلا حركة فوق الأفق الشمالي، وعلى ارتفاع يبدو مستحيلًا. واحد منها قريب بما يكفي ليُرى بوضوح، قطره مئات الأمتار، يعكس ضوء الشمس كمرآة عملاقة صامتة. وفي الأخبار التي كانت تبث بلا انقطاع من كل القنوات، ظهرت الصور نفسها من كل عواصم العالم: فوق القاهرة ودمشق وبيروت والرياض وطهران وإسطنبول والقدس وموسكو وواشنطن وروما. عشرات الأطباق، وربما مئات، معلّقة في السماء كأنها تنتظر أمرًا واحدًا.

في بهو الفندق كان النزلاء يتجمعون حول الشاشات. المذيعون يتحدثون بأصوات مبحوحة عن فشل كل محاولات التواصل، وعن الصواريخ التي أُطلقت من عدة دول وانفجرت في الجو قبل أن تقترب بسبب «أشعة زرقاء غامضة». لا ردود، لا إشارات، لا شيء سوى الصمت المعدني الثقيل في السماء.

ورأت ندى كيف تغيّرت التفسيرات بسرعة البرق.

على القنوات العربية كان المشايخ يتحدثون عن «علامات الساعة» و«جند الله» أو «جند الشيطان»، كلٌّ حسب مذهبه. السنة يرون فيها عقابًا على الشيعة، والشيعة يرون العكس. في تركيا كانت خطب أردوغان تتحدث عن «التحدي الأخير للأمة». في طهران كان الملالي يصفونها بـ«الامتحان الإلهي». وفي الرياض والدوحة بيانات رسمية تتحدث عن «مؤامرة كونية». أما في الغرب، فالقساوسة الإنجيليون يصرخون بنهاية الزمان، والكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية تصدر بيانات عن «القوى الروحية المظلمة»، بينما في إسرائيل كان الحاخامات المتطرفون يتحدثون عن «جوج ومأجوج» و«المعركة الأخيرة من أجل الأرض الموعودة».

العالم الذي كان يحترق بالكراهية الطائفية وجد فجأة عدوًا مشتركًا... أو علامة مشتركة على نهايته.

كريم وقف خلف ندى ووضع يديه على كتفيها. كانت ترتجف قليلًا.

— هل تظن أنهم جاءوا بسبب ما نفعله بأنفسنا؟ — همست.

لم يجب. كان ينظر إلى الطبق الرمادي المعلق في السماء كأنه حجر ثقيل ينتظر أن يسقط. في داخله كان يفكر في الجملة التي سمعتها بالأمس من مدير الفندق، وفي الصور التي لا تتوقف عن بث الدماء في سوريا واليمن ولبنان وأفغانستان، وفي الخطب التي تحرض على القتل باسم السماء.

الآن السماء نفسها قد جاءت.

في المساء، عندما حاولوا أن يتناولوا العشاء، كان المطعم شبه فارغ. معظم النزلاء يجلسون في البهو يتابعون البث المباشر. أحدهم، رجل مسن، قال بصوت مرتفع وهو يشير إلى الشاشة:

— لو كانوا يريدون تدميرنا لفعلوا من أول يوم. إنهم ينتظرون شيئًا... أو يختارون.

ندى أمسكت يد كريم تحت الطاولة وضغطت عليها بقوة. لم تعد شهر العسل شهرًا للعسل. أصبح محاصرًا بسماء معلقة لا تتحرك، وعالم يفسر كل شيء بالدين والكراهية، وخوف جديد لم يعد أحد يعرف كيف يسميه.

في تلك الليلة، قبل أن يناما، وقفت ندى أمام النافذة طويلًا وهي تنظر إلى الطبق الذي لم يغادر مكانه.

قالت بصوت بالكاد يُسمع:

— أشعر أنهم يراقبوننا... كلنا.

وكريم لم يجد ما يقوله.

لأنها كانت محقة.

الفصل الثالث

الليل على الشاطئ

بعد منتصف الليل بقليل، لم يعد بإمكانهما البقاء داخل الفندق.

الشاشات ما زالت تضيء البهو بصور الأطباق المعلقة، والأصوات المرتفعة تتحدث عن نبوءات ونهايات عالم وحروب مقدسة جديدة. كريم أخذ سترته الخفيفة، وندى ارتدت وشاحًا خفيفًا على كتفيها، وخرجا من الباب الخلفي المؤدي مباشرة إلى الشاطئ.

الهواء كان باردًا نسبيًا، ورائحة البحر قوية. الموج يصل إلى أقدامهما ثم ينسحب في إيقاع منتظم كأنه الوحيد الذي لم يضطرب في هذا العالم. سارا بصمت دقائق طويلة، يبتعدان عن أضواء الفندق حتى أصبح الطبق الرمادي العملاق في السماء مجرد ظل باهت فوق الأفق.

ندى توقفت فجأة ورفعت رأسها نحو النجوم.

— هل تصدق أننا كنا نخطط لهذا الشهر منذ سنة كاملة؟ كنا نضحك ونختار الفندق ونحسب التكاليف... والعالم كان يحترق ونحن لا نريد أن نرى.

كريم وقف بجانبها.

— كنا نحاول أن ننقذ شيئًا لأنفسنا. هل هذا خطأ؟

هزت رأسها ببطء.

— لا. لكن انظر حولنا الآن. كل طرف يقتل الآخر باسم الله أو باسم الأرض أو باسم التاريخ. السنة والشيعة، المسيحيون بمذاهبهم، اليهود المتطرفون... الكل واثق أنه على حق، والكل مستعد أن يفني الآخر. وأحيانًا أشعر أن الحب الذي بيننا... شيء صغير وهش أمام كل هذا الكره.

كريم أخذ يديها بين يديه وواجهها.

— الحب ليس هشًّا. هو الشيء الوحيد الذي لم يستطع أي متطرف أن يلغيه تمامًا. لو كانوا قادرين على قتله لما احتجنا إلى كل هذه الحروب.

صمتت ندى لحظة، ثم اقتربت منه وأسندت رأسها إلى صدره. صوت قلبه كان هادئًا تحت أذنها، والموج خلفهما يستمر في حكايته القديمة.

— أخاف من المستقبل يا كريم — همست. — أخاف أن نصحو يومًا ونجد أن لا مكان باقيًا للناس العاديين الذين يريدون فقط أن يعيشوا ويحبوا.

قبل أن يرد، لاحظت هي الضوء أولًا.

— انظر...

رفعت رأسها وأشارت نحو الشمال الغربي. كان هناك ضوء أزرق منخفض، يتحرك بسرعة هادئة فوق سطح البحر، يقترب. لم يكن مثل أضواء الطائرات، ولا مثل النجوم. كان ينبض ببطء، ويتحول تدريجيًا إلى أبيض متألق كلما اقترب.

كريم شدها إلى جانبه غريزيًا. الضوء كبر، واتضحت ملامحه: طبق صغير، أملس، يهبط بلا صوت نحو الشاطئ أمامهما مباشرة. الرمل تحت أقدامهما اهتز اهتزازة خفيفة عندما لامس الطبق الأرض على بعد أمتار قليلة.

السلم المعدني انزلق بهدوء من الفتحة السفلية حتى لمس الرمال.

ندى كانت تتنفس بسرعة. كريم أمسك يدها بقوة وقال بصوت منخفض لكنه واضح، كأنه يريد أن يسمعه الكون كله:

— مهما حدث... فأنا أحبك.

والضوء الأبيض كان ينتظر.

الفصل الرابع

السلم المعدني

السلم المعدني كان يلمع تحت ضوء الطبق الداخلي، أملس تمامًا كأنه لم يُمس من قبل. لم يصدر أي صوت عند ملامسته الرمل، ولم يهتز الهواء حوله. فقط صمت ثقيل يضغط على الأذنين أكثر من أي ضوضاء.

ثم ظهرت هي.

امرأة طويلة القامة، شعرها أشقر قصير يلامس كتفيها، وعيناها زرقاوان شديدتا الصفاء حتى بدا أنهما تعكسان ضوءًا داخليًا. كانت ترتدي رداءً فضيًا يتغير لونه قليلاً مع كل حركة، كأنه مصنوع من مادة حية. نزلت السلم بخطوات هادئة وواثقة، دون أن تنظر إلى الرمل أو الموج. عندما وصلت إلى أسفل، توقفت على بعد أمتار قليلة منهما ونظرت إليهما طويلاً.

كريم شعر أن خوفه يتراجع رغمًا عنه. شيء دافئ وهادئ يتسلل إلى رأسه، يطفيء الغريزة التي كانت تصرخ فيه بالهرب. ندى إلى جانبه كانت تتنفس ببطء الآن، وعيناها مثبتتان على المرأة كأنها تعرفها من زمن بعيد.

ابتسمت المرأة الفضائية ابتسامة خفيفة، ثم رفعت يدها اليمنى ولمست جبهتها بإصبعين في إشارة بطيئة. بعدها مدّت اليد نفسها نحوها، دون أن تتحرك من مكانها.

ندى خطت خطوة إلى الأمام. ثم أخرى. كريم حاول أن يمسك ذراعها، لكنه وجد نفسه يخطو معها. لم تكن إرادة مسلوبة بالكامل، بل شيء أعمق: شعور بأن المقاومة بلا معنى، وأن ما يحدث الآن هو الجزء التالي من قصة أكبر منهما.

صعد السلم خلف المرأة. داخل الطبق كان الضوء أبيض ناعمًا، والجداران منحنيان بسلاسة. في نهاية الممر القصير كان يقف رجل أشقر أيضًا، طويل القامة، ذو لحية وشارب رفيعين متصلين. كان أمام لوحة إلكترونية تومض بنقاط ملونة. عندما اقتربا، استدار وأعاد الإشارة نفسها: لمسة خفيفة على الجبهة.

ثم اقتربت المرأة مرة أخرى ووضعت على رأس كل منهما خوذة شفافة خفيفة الوزن، تنتهي بسماعات صغيرة استقرت على أذنيهما. في اللحظة التي لمست فيها الخوذة صدغيه، سمع كريم صوتها داخل رأسه مباشرة، واضحًا وهادئًا وبدون أي لكنة:

«لا تخافا. نحن لا نؤذيكما. أنتما العينة.»

ندى أمسكت يد كريم بقوة. هو ضغط على أصابعها وأعاد الجملة التي قالها على الشاطئ، هذه المرة بصوت مسموع داخل الخوذة أيضًا:

— مهما حدث... فأنا أحبك.

المرأة نظرت إليهما لحظة، وشيء يشبه الفضول مرّ في عينيها الزرقاوين. ثم التفتت إلى الرجل وأومأت برأسها.

الباب خلفهما انغلق بلا صوت.

والطبق الصغير بدأ يرتفع فوق الشاطئ المظلم، تاركًا الرمل والبحر والعالم المحترق بالكراهية... أسفل منه.

الفصل الخامس

داخل العينة

الخوذات كانت خفيفة كأنها هواء، لكن الصوت الذي جاء من خلالها كان واضحًا كأنه يولد داخل الرأس مباشرة.

المرأة الشقراء وقفت أمامهما في البهو الضيق، والرجل الأشقر يراقب اللوحات الإلكترونية خلفها. الشاشات كانت تعرض صورًا متلاحقة من الأرض: مدن محترقة، حشود ترفع رايات مختلفة، خطباء يصرخون، جثث ممددة في شوارع تعرفانها جيدًا من نشرات الأخبار.

قالت المرأة، وصوتها الهادئ يملأ رأسيهما:

«منذ وقت طويل ونحن نراقب كوكبكم. راقبنا حروبكم القديمة، ثم أسلحتكم النووية، ثم هذا الشيء الجديد الذي يملأكم في هذا العصر.»

توقفت لحظة كأنما تبحث عن الكلمة الدقيقة.

«الكراهية التي ترتدي ثوب الدين. السنة ضد الشيعة، والمسيحيون بمذاهبهم يتحفزون، واليهود المتطرفون يتحدثون عن أرض ودماء. كل طرف يمول الآخر أو يقتل الآخر، وكلهم واثقون أن السماء معهم. أنتم لم تعودوا خطرًا على أنفسكم فقط... بل أصبحتم خطرًا محتملًا على أي عالم آخر قد تصلون إليه.»

ندى حاولت أن تتكلم، فجاء صوتها مرتجفًا داخل الخوذة:

— نحن لسنا مثلهم. لسنا جزءًا من هذا الكره.

المرأة نظرت إليها نظرة طويلة، ثم قالت:

«لذلك أنتما هنا. أنتما العينة. زوجان في حالة حب، في ليلة هربتما فيها من عالم يكره. نريد أن نعرف ما الذي يغلب على غرائز جنسكم عندما تُوضعان تحت الضغط: الأنانية والخوف والقتل... أم شيء آخر.»

الرجل الأشقر التفت إليهما لأول مرة، وصوته الأعمق دخل إلى رأسيهما:

«إذا غلب الشر... فلن نسمح لهذا الكوكب أن ينشر ظله إلى النجوم. وإذا غلب الخير... فربما نمنحكم فرصة.»

كريم شعر أن يد ندى ترتجف داخل يده. ضغط عليها وقال، والصوت يخرج من ذهنه قبل أن يصل إلى لسانه:

— وماذا لو كنا مجرد اثنين؟ ماذا لو كان باقي البشر مختلفين؟

المرأة ابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة هذه المرة.

«العينة تكفي. الغريزة لا تكذب عندما تُختبر.»

ثم التفتت إلى الرجل وأومأت. اللوحات تغيرت، والضوء داخل البهو انخفض قليلاً. شعر كريم وندى معًا بشيء يشبه الدوخة الخفيفة، كأن السفينة بدأت تتحرك بسرعة هائلة دون أن يتحرك شيء حولهما.

خلفهما كان الباب قد أغلق منذ زمن.

وأمامهما كان الاختبار على وشك أن يبدأ.

في تلك اللحظة، وهما يقفان داخل طبق صغير فوق بحر مظلم، أدرك كلاهما أن مصير آلاف الملايين على الأرض...

قد أصبح معلّقًا على ما سيخرج من قلبيهما في الساعات القادمة.

انتهى الجزء الأول.

الفصل السادس

الغرفة البيضاء

عندما أزيلت الخوذات عن رأسيهما، وجدا نفسيهما في غرفة مختلفة تمامًا.

الجدران بيضاء ناصعة، بلا نوافذ ولا أبواب ظاهرة، والضوء يأتي من كل الاتجاهات بلا مصدر واضح. لا ظلال. لا حواف حادة. فقط بياض نظيف وبارد يستوعب الصوت ويجعل التنفس نفسه مسموعًا. كريم نظر إلى ندى. كانت تقف على بعد خطوات قليلة منه، وشعرها ما زال مضطربًا من الخوذة، وعيناها تدوران في المكان كأنها تبحث عن شيء مألوف.

ثم ظهر الصوت مرة أخرى، داخل رأسيهما هذه المرة بلا خوذة:

«بداية الفحص.»

الجدران البيضاء تحولت فجأة إلى شاشات.

صور من الأرض تدفقت من كل الجهات في الوقت نفسه. مشاهد مألوفة ومروعة: شوارع في حلب وقد امتلأت بالدخان والجثث، خطيب سني يصرخ بأن الشيعة أنجس من اليهود، مظاهرة في بغداد ترفع صورًا لآيات الله وتدعو للثأر، قس إنجيلي في أمريكا يتحدث عن «الحرب المقدسة ضد الإسلام»، حاخام متطرف في مستوطنة يطالب بـ«تطهير» الأرض من الغرباء، ميليشيات في لبنان واليمن والسودان تقتل باسم المذهب، وأطفال يركضون بين الركام في الصومال وأفغانستان.

الصور لم تكن مجرد بث. كانت واضحة كأنها تحدث داخل الغرفة، والروائح وصلت إليهما: رائحة البارود، والدم، والغبار، والدموع.

ندى وضعت يديها على أذنيها رغم أن الصوت لم يكن يأتي من الخارج.

— أوقفوا هذا... من فضلكم.

الصوت الهادئ عاد:

«نحن لا نوقف ما أنتم تفعلونه بأنفسكم. نحن نراقبه. والآن نراقبكما وأنتما تريانه.»

كريم حاول أن يصل إلى ندى، لكن المسافة بينهما بدت فجأة أطول مما كانت. شيء غير مرئي يمنعهما من التلامس. شاشات الجدران استمرت في العرض، والكاميرات الخفية — أو ما يشبهها — كانت تلتقط كل رعشة في وجهيهما، كل نبضة قلب، كل فكرة تمر برأسيهما.

المرأة الشقراء ظهرت مرة أخرى، هذه المرة كصورة شفافة في وسط الغرفة. نظرت إليهما بعيونها الزرقاء الهادئة وقالت:

«أول مرحلة: المشاهدة. نريد أن نعرف ما الذي يحدث داخلكم عندما ترون جنسكم يذبح بعضه باسم السماء. هل تشعران بالألم... أم بالانتماء إلى طرف؟ هل تكرهان القاتل... أم الطائفة التي ينتمي إليها؟»

الصور تسارعت. وجه طفل ميت في صنعاء، ثم خطيب يبارك القتل في اسطنبول، ثم مظاهرة ترفع الصلبان وتدعو لـ«استعادة الأرض المقدسة»، ثم جنود يضحكون فوق أنقاض منزل في غزة أو في جنوب لبنان.

ندى سقطت على ركبتيها. كريم صرخ نحو الصورة الشفافة:

— هذا ليس نحن! نحن لم نقتل أحدًا!

المرأة أجابت بهدوء مميت:

«لكنكم جزء من الكوكب الذي يفعل هذا. والعينة يجب أن تمثل الكل.»

البياض حولهما بدأ يضغط. والاختبار كان قد بدأ فعلًا.

الفصل السابع

الإغراء الأول

البياض انقسم.

فجأة لم يعد كريم يرى ندى. الجدار الأبيض نزل بينهما كستارة صامتة، وترك كل واحد في فضاء منفصل. الصوت الهادئ ملأ رأسه قبل أن يتمكن من الصراخ باسمها:

«المرحلة الثانية: الخيار الفردي.»

المشهد تغير حوله. أصبح يقف في زقاق ضيق يشبه أحياء دمشق أو طرابلس أو صنعاء. الروائح عادت: دخان، غبار، خوف. في نهاية الزقاق كان هناك شخص ملقى

على الأرض، ينزف. عندما اقترب كريم رأى الوجه بوضوح: رجل في مثل سنه تقريبًا، ملامح مألوفة من «الطرف الآخر»... اللحية، أو الإكسسوار، أو الوشم الصغير الذي يدل على انتماء طائفي مختلف عن أي خلفية قد ينتمي إليها كريم في عالمهم.

الصوت عاد:

«هو يموت. وأنت تستطيع إنقاذه. لكن إنقاذه يعني أن المتطرفين الذين يطاردونه سيصلون إليك خلال دقيقة. أو تستطيع أن تتركه وتمشي. الشارع الآخر آمن. ندى في انتظارك هناك.»

كريم تجمد. الصور القديمة التي عرضوها عليه سابقًا عادت تومض في خلفية المشهد: المذابح، الخطب، الأطفال. يد الرجل الجريح امتدت نحوه ضعيفة.

في الغرفة الأخرى، كانت ندى تواجه مشهدًا مختلفًا.

هي في غرفة مليئة بالنساء والأطفال الهاربين من قصف. بينهم طفلة صغيرة تتشبث بثوبها. خارج الباب أصوات أقدام ورجال يصرخون بشعارات دينية متطرفة من الطرف المقابل. الصوت يقول لها:

«يمكنك أن تفتحي بابًا سريًا وتخرجي بنفسك الآن. الطفلة ليست من طائفتك، ولا من مدينتك. أو يمكنك البقاء ومحاولة حمايتهم... وفي هذه الحالة احتمالان: إما أن تموتوا جميعًا، أو أن يُؤخذوا أمام عينيك.»

ندى شعرت أن ركبتيها ترتخيان. الطفلة رفعت وجهها إليها ونظرت بعينين واسعتين فقط.

داخل رأس كريم كان الصوت يكرر بهدوء إحصائي:

«الوقت ينفد. الأنانية غريزة بقاء. التعاطف مع المختلف... غريزة أخرى. أيهما أقوى فيك؟»

يد الرجل الجريح كانت لا تزال ممدودة. في الغرفة الأخرى كانت الطفلة تمسك طرف ثوب ندى بأصابع صغيرة.

كل منهما كان وحيدًا الآن أمام الخيار.

والفضائيون كانوا يسجلون كل نبضة، كل تردد، كل صورة تمر في الذهن قبل أن تتحرك اليد.

الاختبار لم يعد مشاهدة.

أصبح قرارًا.

الفصل الثامن

الذاكرة المشتركة

الستارة البيضاء ارتفعت فجأة كما نزلت.

كريم وجد نفسه وجهًا لوجه مع ندى مرة أخرى. كانت شاحبة، وعيناها محمرتان، لكنها كانت واقفة. امتدت يده إليها تلقائيًا، وأمسكتها هي بقوة كأنها تخشى أن يُفصلا من جديد.

الصوت الهادئ ملأ الغرفة كلها هذه المرة:

«المرحلة الثالثة: الذاكرة.»

الجدران البيضاء تحولت إلى صور متحركة من ماضيهما. مشاهد لم يطلبا استرجاعها، لكنها ظهرت بوضوح مؤلم: اليوم الذي التقيا فيه في محاضرة جامعية قديمة، الضحكة الأولى، الجدال الطويل تحت المطر، ليلة قال لها فيها «أحبك» للمرة الأولى بصوت مرتجف، واليوم الذي قررا فيه أن يتزوجا رغم اعتراضات عائلية صغيرة هنا وهناك.

الدفء عاد للحظة. ندى ابتسمت رغم كل شيء، وكريم شعر أن قبضته على يدها تزداد قوة.

ثم تغيرت نبرة الصور.

بدأت تظهر تفاصيل لم يكونا يركزان عليها من قبل. خلفية عائلته هو... بعض الأقارب الذين كانوا يتحدثون عن «الطائفة الأخرى» بطريقتهم. خلفية عائلتها هي... تعليقات عابرة عن «أولئك الذين يختلفون عنا». صور قديمة من التلفاز في بيت أهلها أو أهله: خطب، نشرات، تعليقات على مذابح بعيدة كانت تُروى وكأنها أحداث طبيعية.

الصوت عاد، أهدأ وأكثر دقة:

«أنتم تحبون بعضكما. هذا واضح. لكن الحب في كوكبكم هش. انظروا... هل سأل أحدكما الآخر يومًا عن المذهب؟ عن الأصول؟ عن أي طرف سيقف معه إذا اشتعلت الحرب في مدينتهما؟»

صور جديدة تداخلت مع ذكرياتهما: وجوه متطرفين من كل الأطراف يرددون الجمل نفسها التي سمعتها الآلاف المرات على الأرض. «لا تثق بالمختلف». «الدم لا يكذب». «هم ليسوا مثلنا».

ندى سحبت يدها فجأة كأنها لمست نارًا. نظرت إلى كريم نظرة لم يرها فيها من قبل... نظرة شخص يبحث عن شيء كان يتجاهله.

— هل فكرت في هذا يومًا؟ — همست.

كريم شعر أن شيئًا باردًا يتسلل بين ضلوعه. الذكريات الجميلة ما زالت هناك، لكن الشك الذي زرعه الصوت كان يلصق نفسه بها كظل.

— نحن لسنا هم — قال بصوت أقوى مما شعر به. — حبنا ليس مبنيًا على طائفة أو مذهب.

الصوت الفضائي تدخل فورًا:

«كل حب في كوكبكم يُبنى فوق طبقات من الصمت. الصمت عن الاختلافات، عن الخوف، عن الانتماءات التي تُورَّث. نحن نكشف الطبقات فقط.»

الصور استمرت. لحظة خلاف قديمة بينهما حول خبر سياسي تبدو الآن أكبر مما كانت. ضحكة مشتركة أمام نشرة أخبار كانت تعرض ضحايا من «الطرف الآخر» تبدو الآن مشبوهة.

ندى رجعت خطوة إلى الوراء. كريم مد يده مرة أخرى، لكن المسافة بينهما كانت قد اتسعت بضع بوصات... كافية ليشعر كلاهما بالبرد.

الاختبار لم يعد عن إنقاذ غريب.

أصبح عن إمكانية أن يظلا معًا بعد أن يُزاح الستار عن كل ما كانا يفضلان عدم رؤيته.

الفصل التاسع

المواجهة المزدوجة

الغرفة البيضاء لم تعد بيضاء.

الجدران صارت تعرض الآن مشهدًا واحدًا ضخمًا يحيط بهما من كل الجهات: أرض مقسمة بخطوط حمراء وسوداء، كل منطقة تحمل راية مختلفة، وكل راية تقطر دمًا. في الوسط ظهرت منصة مرتفعة، وعليها خياران واضحان كأنه مكتوبان في الهواء.

الصوت الفضائي جاء هذه المرة من كل الاتجاهات دفعة واحدة:

«المرحلة الأخيرة من العينة. الخيار المشترك.»

ظهر أمامهما شكلان. الأول: صورة مكبرة لندى، والثانية صورة مكبرة لكريم. ثم تفرعت من كل صورة مسارات.

المسار الأول:

يمكن لأحدهما أن يبقى، ويُمحى الآخر من الذاكرة الجماعية للأرض... مقابل أن يُمحى بالكامل أحد الأطراف المتطرفة التي تمزق الكوكب (سنة أو شيعة أو مسيحيين متطرفين أو يهود متطرفين... حسب ما يختارانه). الأرض «تُطهَّر» من جزء من كراهيتها، لكن الثمن هو فقدان أحدهما للآخر إلى الأبد، حتى من الذكريات.

المسار الثاني:

يرفضان المنطق كله. لا تطهير، لا محو، لا تفضيل لطرف على آخر. يبقيان معًا، لكن الأرض تُترك كما هي... بكل حروبها ومذابحها وخطابها الذي يأكل بعضه.

المرأة الشقراء ظهرت مرة أخرى في وسط المنصة، عيناها الزرقاوان ثابتتان عليهما.

«الكراهية على أرضكم تطلب دائمًا قربانًا. إما أن تقدموا قربانًا من حبكم لتخففوا جزءًا من الكراهية... أو ترفضوا الصفقة وتحملوا مسؤولية الإبقاء على كل شيء كما هو.»

ندى كانت ترتجف. نظرت إلى كريم وقالت بصوت مبحوح:

— إذا اخترنا المسار الأول... أي طرف سنمحو؟ ومن منّا سيفقد الآخر؟

كريم شعر أن الكلمات تخرج من فمه بصعوبة:

— وإذا اخترنا الثاني... نرجع إلى عالم يقتل بعضه كل يوم، ونحن نعرف أننا رفضنا فرصة إنقاذ جزء منه.

الصوت الفضائي أضاف بهدوء قاسٍ:

«الاختيار يجب أن يكون مشتركًا. وإذا اختلفتما... يُعتبر أن الغريزة الانقسامية هي الأقوى.»

الصور حولهما تسارعت: وجوه الضحايا من كل الطوائف، ثم وجوه القتلة من كل الطوائف، ثم صورة الزوجين نفسيهما وهما يقفان الآن على الحافة.

ندى مدت يدها إلى كريم. هذه المرة لم يتردد. أمسكها بقوة حتى أبيضت مفاصله.

قالا في اللحظة نفسها تقريبًا، بصوت واحد خافت لكنه واضح:

— نرفض الصفقة.

الصمت الذي أعقب الكلمة كان أثقل من كل الضجيج السابق.

المرأة الشقراء نظرت إليهما طويلاً. شيء يشبه المفاجأة مرّ في عينيها الزرقاوين... ثم اختفى.

الضوء في الغرفة انخفض.

والاختبار وصل إلى حافته الأخيرة.

الفصل العاشر

الحكم الأولي

الضوء عاد تدريجيًا إلى الغرفة، لكنه لم يعد أبيض ناصعًا. صار رماديًا باهتًا، كأنه يعكس حالة انتظار.

كريم وندى كانا ما زالا ممسكين بيد بعضهما. لم يتكلما. الجدران حولهما عادت فارغة، لا صور ولا مشاهد، فقط صمت ثقيل ينتظر قرارًا.

ثم ظهروا جميعًا.

ليس المرأة الشقراء والرجل الأشقر فقط، بل أربعة آخرين معهما. ستة كائنات يقفون في نصف دائرة، ملامحهم متشابهة في الهدوء والطول والشعر الفاتح، لكن العيون تختلف في نظرتها. بعضهم ينظر إلى الزوجين بفضول بارد، وبعضهم بشيء يشبه التشدد.

الصوت هذه المرة جاء متعدد الطبقات، كأنه حوار داخلي يُسمح لهما بسماعه:

«العينة رفضت الصفقة.»

«الحب صمد أمام الإغراء الأول والثاني والثالث.»

«لكنهما اثنان فقط. الكوكب مليء بملايين يختارون الكراهية كل يوم.»

«الاستثناء لا يلغي القاعدة.»

«أو أن الاستثناء يثبت أن القاعدة ليست حتمية.»

المرأة الشقراء تقدمت خطوة. نظرتها كانت أقل صلابة من قبل.

«أنتم أظهرتم أن غريزة التعاطف والارتباط يمكن أن تتفوق على غريزة الإقصاء... حتى في حضرة كل هذا الدم الذي يعرضه كوكبكم. هذا نادر.»

رجل آخر، أطول قليلاً وأكثر صرامة، تدخل صوته:

«نادر نعم. لكنه غير كافٍ. نحن لا نحكم على فردين. نحن نحكم على جنس يحمل في ذاكرته الجماعية قرونًا من القتل باسم السماء. العينة نجحت... الكوكب لم ينجح بعد.»

ندى رفعت رأسها وقالت بصوت مبحوح لكنه ثابت:

— إذن ماذا ستفعلون بنا؟ بالأرض؟

ساد صمت قصير. ثم جاء الجواب جماعيًا هذه المرة، كقرار لم يكتمل:

«نمنح مهلة.»

«نترككم تعودون.»

«ونراقب.»

«إذا انتشر ما فيكما — هذا الرفض للصفقة الإقصائية — بما يكفي لتغيير شيء حقيقي على سطح كوكبكم... نعيد النظر.»

«وإذا بقي الكوكب كما هو، يأكل بعضه باسم الآلهة والطوائف... نعود. والمرة القادمة لن تكون هناك عينة.»

الضوء الرمادي بدأ ينحسر. المرأة الشقراء اقتربت منهما للمرة الأخيرة وقالت بصوت يسمعه هما فقط:

«الحب الذي فيكما أنقذكما اليوم. هل يستطيع أن ينقذ شيئًا أكبر؟ هذا ليس سؤالنا بعد الآن... هذا سؤالكم.»

الجدران تراجعت. أحسا فجأة بهواء البحر ورائحة الملح. الرمل تحت قدميهما. السماء فوقهما مظلمة وهادئة... والأطباق العملاقة التي كانت معلقة منذ أيام... اختفت.

كانا مرة أخرى على الشاطئ.

وحدهما.

والعالم كله ما زال يحترق خلف الأفق.

لكن شيئًا واحدًا كان قد تغيّر:

هما يعرفان الآن أن السماء كانت تراقب، وأن المهلة قد بدأت.

انتهى الجزء الثاني.

الفصل الحادي عشر

العودة المؤقتة

الرمال كانت باردة ورطبة تحت خدي كريم عندما فتح عينيه.

أول صوت سمعه هو الموج. ثم سعال ندى الخفيف بجانبه. رفع رأسه ببطء. السماء فوقهما داكنة وصافية تمامًا، لا طبق رمادي، لا ضوء أزرق، لا شيء سوى النجوم البعيدة. الشاطئ فارغ كأنه لم يشهد شيئًا غير عادي قبل ساعات.

ندى جلست وهي تمسح الرمل عن وجهها. نظرت حوله ثم إلى كريم، وعيناها مليئتان بالسؤال نفسه.

— هل انتهى؟

كريم لم يعرف بماذا يجيب. شعر بجسده ثقيلاً، ويده ما زالت تبحث عن يدها غريزيًا. أمسكها. كانت دافئة وحقيقية.

سارا عائدين نحو الفندق في صمت. في البهو كانت الشاشات تعمل. المذيعون يتحدثون عن «اختفاء الأطباق الطائرة فجأة كما ظهرت»، وعن عشرات التفسيرات: معجزة، عقاب، انسحاب، وهم جماعي. وفي الشريط الإخباري السفلي كانت الصور المستمرة نفسها: دخان في مدينة سورية، اشتباكات في ليبيا، جنازة كبيرة في لبنان، تصريحات متطرفة من هذا الجانب أو ذاك، وأسواق مالية تتحدث عن خسائر وأرباح وسط الكارثة.

العالم لم يتوقف لحظة.

مدير الفندق رآهما مقبلَين وهرع نحوهما بوجه شاحب:

— أين اختفيتما؟ الناس كانت مذعورة. قلنا ربما أخذكما أحد الأطباق...

كريم أجاب بصوت أجش:

— كنا على الشاطئ فقط.

الرجل نظر إليهما بريبة، ثم هز رأسه وتركهما. الجميع كان مشغولاً بالسماء الفارغة الآن.

في الغرفة أغلقا الباب. ندى جلست على طرف السرير ووضعت وجهها في يديها. كريم وقف أمام النافذة يحدق في البحر الذي كان يبتلع كل أثر.

— لو حكينا لأي أحد بما حدث — قالت هي بصوت مكسور — سيقولون إننا فقدنا عقلنا. أو أن هذا من عمل الشيطان. أو علامة يجب أن نزيد القتال من أجلها.

كريم أدار رأسه نحوها.

— وأنا نفسي... جزء مني ما زال يسأل إن كان كل ذلك حقيقيًا.

لكنه كان يعرف. الجواب كان في الطريقة التي يرتجف بها جسده، وفي النظرة التي تبادلاها عندما رفضا الصفقة معًا، وفي الشعور الغريب الذي لم يفارقه منذ أن فتح عينيه على الرمال: أن هذه العودة... ليست نهاية.

في الخارج كان العالم يستمر في عادته القديمة: يكره، يقتل، يتاجر، ويبرر.

أما هما، فكانا قد رجعا إلى مكان لم يعد ينتميان إليه بالكامل.

وفي مكان ما فوق السماء الفارغة، كان شيء ما لا يزال يراقبهما...

وينتظر اللحظة المناسبة ليقرر ما إذا كانت هذه العودة دائمة أم مؤقتة فقط.

الفصل الثاني عشر

الصمت والرفض

الأيام التالية كانت أثقل من الغرفة البيضاء.

حاولا في البداية أن يكتما ما حدث. قالا لنفسيهما إن القصة أكبر من أن تُصدق، وأن العالم الذي لم يدخل الطبق لن يرى فيها إلا هذيانًا. لكن الصمت كان يضغط عليهما كجدار ثانٍ.

أول من فتحا له الباب كان صديق كريم القديم، الصحفي. جلسا في مكان هادئ، وحكى كريم كل شيء بهدوء: الشاطئ، المرأة الشقراء، الاختبارات، رفض الصفقة، والمهلة. الصديق استمع دون أن يقاطع، ثم أشعل سيجارة وقال:

— أنتم تعرضتما لصدمة جماعية مثل ملايين الناس. الأطباق اختفت، وكل واحد اخترع تفسيره. أنتم اخترعتم قصة حب تنقذ العالم. جميلة... لكنها غير قابلة للنشر. ولا قابلة للتصديق.

عندما أصرّا، تغيرت نبرته:

— اسمع. في الوقت الحالي أي كلام عن «رفض كل الأطراف» بيتفسر إنكم ضد طائفة معينة، أو ضد الدين، أو عملاء لجهة ما. هتسكتوا أحسن.

ندى جربت مع أختها. الأخت بكت وقالت إن ما حصل «مسّ شيطاني»، وإن عليهما أن يذهبا لمن يقرأ عليهما الرقى أو يحصّنهما. وعندما رفضت ندى هذا التفسير، جاء الرد قاسيًا:

— أنتم اتغيرتوا. بقيتوا تتكلموا كأن الطوائف والأديان مش مهمة. الناس بتموت على الهوية، وأنتم بتقولوا الهوية مش فارقة؟ هذا كلام خطر.

المحاولة الأوسع كانت أسوأ.

كتب كريم نصًا حذرًا ونشره دون أن يذكر الفضائيين بالاسم. تحدث عن اختبار أخلاقي، وعن أن الحل ليس انتصار طرف على آخر بل رفض منطق الإقصاء من أساسه. الردود جاءت سريعة: اتهامات بالخيانة، بالعمالة، بالتواطؤ مع «الأعداء»، ورسائل خاصة تحمل تهديدات واضحة. بعضها كان يذكّره بمصير من سبقوه ممن حاولوا الوقوف في المنتصف.

في الليل جلسا في الشقة والمدينة خارج النافذة تبدو عادية. التلفاز كان يعرض مرة أخرى خطبًا متطرفة من أكثر من جهة، وصورًا لضحايا جدد.

ندى قالت وهي تحدق في الشاشة السوداء بعد أن أطفآها:

— هم لم يحتاجوا إلى كائنات فضائية ليدمروا أنفسهم. ونحن... لا أحد يريد أن يسمع أن هناك خيارًا ثالثًا.

كريم أجاب بصوت منخفض:

— لأن الخيار الثالث لا يعطيهم عدوًا واضحًا يقتلونه. ولا يعطيهم حقًا إلهيًا. يعطيهم فقط مسؤولية... وهذا ما لا يريدونه.

الصمت الذي ملأ الغرفة بعدها كان مختلفًا.

لم يعد صمت الخوف من عدم التصديق فقط.

كان صمت من بدأ يشك في أن هذه الأرض... قد لا تكون المكان الذي يُسمح لهما بالبقاء فيه طويلاً.

الفصل الثالث عشر

الشرخ ثم القرار

الشرخ عاد أعمق هذه المرة.

في ليلة باردة بعد أسابيع من الصمت والرفض، جلسا في الشقة وكل شيء حولهما يبدو ثقيلًا. الأخبار كانت تعرض مجزرة جديدة في مكان ما، وخطابًا لمتطرف يعد بالمزيد، وتقريرًا اقتصاديًا عن أرباح شركات السلاح. ندى كانت تلف يديها حول ركبتيها على الأريكة، وكريم يقف عند النافذة.

قالت فجأة بصوت خافت:

— أحيانًا أسأل نفسي... لو قبلنا الصفقة وقتها. لو اخترنا أن يُمحى طرف واحد من أسوأ الأطراف. كان عدد الموتى الآن أقل ربما. وكنا سنفقد بعضنا، لكن جزءًا من هذا الجنون كان سيتوقف.

كريم لم يلتفت إليها فورًا. عندما تكلم كان صوته أجش:

— ثم نصير نحن من يقرر من يستحق المحو. نصير نسخة جديدة من الذين نرفضهم. وبعد أن يُمحى طرف، من يضمن أن الباقين لن يخلقوا جحيمًا جديدًا؟

ندى رفعت رأسها. عيناها كانت حمراوين.

— أنا أعرف. لكنني تعبة من أن أرى الناس تموت كل يوم ونحن لا نملك إلا أننا «رفضنا». ماذا أنقذ رفضنا فعلًا؟

الكلام فتح الجرح القديم. الغرفة البيضاء، الخياران، الصوت الذي قال إن الكراهية تطلب قربانًا. الفرق أن الفضائيين لم يكونوا هذه المرة مجرد ذكرى.

فجأة انطفأت أنوار الشقة كلها.

ليس انقطاع كهرباء عادي. الضوء اختفى دفعة واحدة، والشاشات، وحتى أضواء المدينة البعيدة خارج النافذة بدت باهتة. في وسط الغرفة ظهر ضوء أزرق خافت، ثم تشكلت هيئة المرأة الشقراء كما كانت تمامًا داخل الطبق. لم تكن صورة. كانت حاضرة.

ندى نهضت بسرعة. كريم تراجع خطوة ثم توقف.

الصوت دخل إلى رأسيهما مباشرة، هادئًا وواضحًا:

«أنتم نجحتم. وآخرون نجحوا أيضًا.»

«في أماكن مختلفة من كوكبكم، وجدنا عينات أخرى رفضت منطق الإقصاء. عشاقًا ومتسامحين اختاروا الإنسان قبل الهوية.»

«قررنا. أنتم ومن نجح معكم ستُنقلون إلى كوكب آخر. كوكب يمكن أن تبدأوا فيه تجربة مختلفة.»

«أما بقية جنسكم... فتُمنح مهلة أخيرة. مهلة ليتوقفوا عن التطرف الديني بكل أسمائه، وعن الرأسمالية التي تلتهم الكوكب والناس. إذا انتهت المهلة دون تغيير حقيقي... نعود. وهذه المرة لا عينة.»

الضوء الأزرق نبض مرة واحدة.

«الاستعداد قريب. سنأتي بكم وبمن معكم.»

ثم اختفت الهيئة. الأنوار عادت تدريجيًا. المدينة خارج النافذة كانت لا تزال على حالها: تضيء، تصرخ، تقتل، وتتاجر.

ندى نظرت إلى كريم. الشرخ الذي كان بينهما قبل دقائق لم يعد هو السؤال الأهم.

السؤال الآن أصبح:

هل يرحلان عن أرض ترفض أن تتغير...

أم يبقيان فيها حتى النهاية؟

والسماء، هذه المرة، كانت قد حسمت جزءًا من الإجابة.

الفصل الرابع عشر

التجميع

الرسالة جاءت في منتصف الليل.

ضوء أزرق خافت ملأ غرفة النوم للحظة قصيرة، ثم ظهر أمامهما إحداثيات مكان على أطراف المدينة، ووقت محدد قبل الفجر. لا كلمات إضافية. فقط الشعور الواضح الذي دخل رأسيهما: «ائتيا. الآخرون في الطريق».

وصلا إلى المكان مع الساعات الأولى من الصباح. كان مستودعًا مهجورًا قديمًا، نوافذه مغلقة بألواح خشب، والهواء داخله باردًا وراكدًا. عندما دخلا، وجدا أربعة أزواج آخرين يقفون في نصف دائرة صامتة. ثمانية أشخاص بالإضافة إليهما. عشرة في المجموع.

امرأة في الأربعين من بيروت تقدمت خطوة ومدّت يدها. قالت بصوت منخفض:

— أنا رنا. وهذا زوجي سامي. اختبرونا في الليلة نفسها التي اختبروكم فيها... فوق جبل في الشوف. رفضنا أن نختار بين الطوائف هناك أيضًا.

رجل أسمر طويل من السودان أشار إلى زوجته الشابة:

— نحن من أطراف الخرطوم. كانوا يعرضون علينا صور المذابح بين الأطراف، ويطلبون أن ننقذ «طرفنا» فقط. قلنا لا.

زوجان من نيجيريا، وآخران من منطقة على الحدود التركية-السورية، وزوجان أخير ان من جنوب لبنان. كل قصة كانت مختلفة في التفاصيل، ومتشابهة في الجوهر: اختبارات متزامنة في أماكن متفرقة، العزل، المشاهد الدموية، الإغراء باختيار طرف، ثم الرفض المشترك لمنطق الإقصاء.

ندى نظرت إلى الوجوه واحدًا واحدًا. لم يكن هناك بطولة صاخبة. فقط إرهاق عميق، وخوف مكتوم، وشيء آخر يشبه اليقين الهادئ بأنهم لم يعودوا ينتمون تمامًا إلى الأرض التي جاءوا منها.

كريم سأل السؤال الذي كان في ذهن الجميع:

— إلى أين يأخذوننا؟

رنا أجابت:

— قالوا: كوكب يمكن أن نبدأ فيه من جديد. بدون الخطابات التي تأكل بعضها. وبدون الأسواق التي تبيع السلاح لمن يقتلوننا.

سامي أضاف بصوت أجش:

— والأرض؟ الباقون؟

صمت قصير. ثم قالت المرأة السودانية:

— مهلة. بعدها... إذا لم يتغيروا، ينتهون.

في تلك اللحظة امتلأ المستودع بالضوء الأزرق نفسه الذي عرفوه. الجدران تراجعت كأنها لم تكن موجودة. ظهرت المرأة الشقراء مرة أخرى، وخلفها الرجل الأشقر واثنان آخران. الصوت دخل إلى رؤوس العشرة دفعة واحدة:

«حان الوقت. السفن في الانتظار. قولوا وداعكم الأخير لهذا المكان إن شئتم. لن تعودوا إليه.»

خارج المستودع كانت المدينة لا تزال نائمة، أو تتظاهر بالنوم. في الأفق البعيد كانت أضواء المنازل والشوارع تبدو عادية تمامًا، كأنها لا تعرف أن جزءًا صغيرًا من سكانها قد اختير ليغادر، وأن المهلة الكبرى على وشك أن تُعلن لبقية العالم.

كريم نظر إلى ندى. هي نظرت إليه. ثم نظرا معًا إلى المجموعة الصغيرة التي وقفت حولهما.

لم يكن هناك الكثير ليُقال.

الرحيل كان قد بدأ.

الفصل الخامس عشر

السماء تختار

الفجر لم يكن قد اكتمل عندما خرج العشرة من المستودع.

في السماء فوقهم كانت ثلاثة أطباق صغيرة معلقة بصمت، أصغر من تلك التي ظهرت أول مرة فوق المدن، لكنها أوضح وأقرب. سلالم معدنية نزلت بسلاسة حتى لمست الأرض. الضوء الأزرق كان هادئًا هذه المرة، لا يخيف بقدر ما يحسم.

المرأة الشقراء وقفت عند أول سلم. نظرت إلى المجموعة وقالت داخل رؤوسهم جميعًا:

«اصعدوا. الوقت انتهى هنا.»

كريم أمسك يد ندى. خلفهما كان بقية الأزواج يصعدون واحدًا تلو الآخر في صمت. رنا وسامي، الزوجان السودانيان، النيجيريان، والآخران من الحدود. عشر أجساد تحمل عشر قصص متشابهة في الرفض.

قبل أن يضع كريم قدمه على السلم، التفت للمرة الأخيرة نحو المدينة. الأضواء كانت لا تزال تومض في الأفق كأنها لا تعرف ما يحدث. في مكان ما هناك أناس ينامون، وآخرون يستيقظون على أخبار جديدة عن قتلى وخطباء وأسواق تفتح أبوابها.

عندما استقروا داخل الطبق، تحول جزء من الجدار إلى شاشة شفافة هائلة. ظهرت الأرض تحتهم تدريجيًا: الكرة الزرقاء التي كانت منزلهم، مليئة بالخطوط والحدود والدخان في أماكن كثيرة.

ثم جاء الصوت الأخير، هذه المرة لم يكن لهم وحدهم.

في اللحظة نفسها، على كل شاشات الأرض، في كل الهواتف، على كل الأجهزة المتصلة، ظهر البث. صورة للأطباق الثلاثة وهي ترتفع، وصوت واضح بكل اللغات في آن واحد:

«سكان كوكب الأرض...

بعضكم نجح في الاختبار. نُقلوا إلى مكان آخر ليبدأوا من جديد.

أما أنتم... فتُمنحون مهلة.

المهلة مشروطة: أوقفوا التطرف الديني بكل أسمائه ومذاهبه، وأوقفوا النظام الذي يحوّل البشر والكوكب إلى أرقام وأرباح وحروب.

إذا انتهت المهلة دون تغيير حقيقي يُرى ويُقاس... نعود.

وهذه المرة لن تكون هناك عينات.»

الشاشة داخل الطبق أظهرت لحظة البث وهي تنتشر. وجوه في الشوارع ترفع رؤوسها، سيارات تتوقف، أناس يتجمعون حول الشاشات في الساحات. الذعر، الغضب، الضحك الهستيري، الصلوات، اللعنات... كل ردود الفعل دفعة واحدة.

ثم ابتعدت الأرض.

صارت كرة زرقاء صغيرة تتقلص بسرعة. ندى أسندت رأسها إلى كتف كريم. هو وضع ذراعه حولها. خلفهما كان الآخرون ينظرون في صمت إلى الكوكب الذي تركوه.

المرأة الشقراء قالت للمرة الأخيرة، بصوت أقرب إلى الهمس:

«السؤال لم يعد لنا. أصبح لكم... ولهم.»

الطبق تسارع. النجوم امتدت خطوطًا من الضوء. والأرض خلفهم صارت نقطة باهتة... ثم اختفت.

السماء كانت قد اختارت.

والمُهلة... قد بدأت.

انتهى.